أسرار التقابل الخلافي
دراسة دلالية في بعض النصوص القرآنية

المدرس المساعد : عباس عبد القادر حسين

قسم اللغة العربية ـ كلية العلوم والتربية الأساسية / عقرة ـ
جامعة دهوك ـ إقليم كردستان ـ العراق

المدرس : محمد عبد القادر حسين

قسم اللغة العربية ـ فاكولتي العلوم الإنسانية / جامعة زاخو ـ
إقليم كردستان ـ العراق

الملخص :

يتناول هذا البحث أسرار التقابل الخلافي في بعض نصوص القرآن الكريم ؛ وذلك من خلال دراسة دلالية في هذه النصوص تظهر جانباً من أسراره ودقائق معانيه ودلالاته ، وتبين أثره في تعميق المعنى وتوضيحه ، وقد تناول البحث في البداية تعريفاً للتقابل الخلافي في اللغة والاصطلاح ، ثم تركّز الحديث على أسرار التقابل الخلافي في القرآن الكريم ، بعد اختيار نماذج معينة من المتقابلات الخلافية التي وردت في القرآن الكريم ، بيّنا من خلالها جانباً مما اشتملت عليه من أسرار التقابل الخلافي ، وأنّ القرآن الكريم عندما يختار لفظاً معيّناً أو يستبدل لفظاً بغيره ، أو عندما يقابل لفظاً بلفظٍ آخر مخالف له من دون مضادة بينهما ، إنما يأتي ذلك قصداً ؛ لينقل من خلاله معانٍ مقصودة ، ويصل به إلى الغرض المطلوب .

الكلمات المفتاحية . التقابل الخلافي ، أسرار ، اختيار

Secrets controversial juxtaposition

A Semantic study at the Quranic text

Assistant Lecturer: Abbas Abdul Kadir Hussain

Department of Arabic Language Faculty of Science and Basic Education / Akre. University of Dohuk/ Kurdistan region of Iraq

Abstract

This research deals with the mysteries of controversial juxtaposition in Koran; and through the semantic study in Koranic texts showing aspect of his secrets and minutes meanings and connotations, showing its impact in deepening the meaning and explaining. The search initially defined controversial juxtaposition linguistically and idiomatically, and then focused on the secrets of controversial juxtaposition in the Koran, after the selection of certain models of the controversial Almottagablat(juxtaposition) Koran. It has been showed some of the secrets of controversial juxtaposition, and that the Koran when choosing particular term and replace it with another, or when it corresponds an utterance with another words without violating ,this comes so intentionally; to convey intended meaning, and reaches the intended purpose.

key words . Juxtaposition, controversial, secrets, choice

المقدمة

الحمد لله الذي علّم بالقلم علّم الانسان مالم يعلم ، والصلاة والسلام على النبي الأكرم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أمّا بعد : فإنَّ البحث في ظلال القرآن الكريم شرفٌ عظيمٌ ، لا يُدانيه شرف ؛ لأنَّه حديثٌ من الأفق الذي أشرقت منه شمسُ الكلمة الأولى على الحياة ، فأضاء نورُها آفاق الحياة بعد ظلمات بعضها فوق بعض ، والبحث في كتاب الله عزّ وجلّ يهدف إلى بيان إعجازه ، والكشف عن أسراره ومعانيه ؛ وذلك من خلال إدراك أسلوبه الراقي المعبر المؤثر، ودقائق نظمه المعجز في كلِ تراكيبه وألفاظه وحروفه ومعانيه ، لما تحتويه من عوالم دلالية بأنساقٍ معرفيةٍ فاقت حدود اللغة كلها ، وتجاوزت مستوى الكلام الإعتيادي ، الباعثة إلى التأمل والتفكّر والتدبّر في حقائقِ عباراته وتفهم عجائبه ، قال تعالى :﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [١] ، ولم يترك القرآن الكريم أسلوباً للإرشاد الاّ سلكه ، ولا سبيلاً للهداية إلاّ اتّبعه ؛ وذلك لإيقاظ القلوب الغافلة وتحريك العقول الخاملة ، وهداية البشرية إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدارين الدّنيا والآخرة ، وكان من بين أساليب القرآن الكريم المعبرة والباعثة إلى التفكّر والتدبّر ،أسلوب (التقابل الخلافي) الذي جاء في القرآن الكريم في مواضع متعددة وبصور متنوعة ، وفي مواقف متغيرة تستدعي الوقوف عندها ، لننظر في أسراره ومعانيه ونلمس دلالاته ودقائقه ؛ لذا ارتأينا أن يكون عنوان البحث (أسرارُ التقابل الخلافي ، دراسةٌ دلالية في بعض النصوص القرآنية) ، والنظر إلى النص القرآني بوصفه كلاماً أزلياً خالداً يمنح الرؤية تجدداً وحيويّةً ؛ كي تتناسب والمرحلة العلمية المتقدمة التي تقتضي استحثاث التنامي الفكري ،

الذي يطمح إلى توسيع مجالات البحث بالانفتاح على ميادين أوسع تلائم عمق الوعي والإدراك الذهني الطامح إلى الاستزادة .

والتقابل الخلافي فضلاً عن كونه أسلوباً بيانياً يقتضيه جمال القول ، هو في الوقت نفسه أسلوب لغويّ ذكيّ ، الغرض منه نقل معنى معين معبّر مشحون يحمل في طيّاته صورة منسقة مكتملة ، تحمل معها معانٍ مقصودة تحث السامع على التأمّل والتفكّر والتدبّر ، وتبيّن السبب والنتيجة في وقتٍ واحدٍ ؛ ولاسيما أنَّه يبعث بسؤالٍ مفاده : لماذا لم تُقابل الكلمة بما هو ضدٌ لها في المعنى وقُوبلت بما هو مخالفٌ لها ؟ على الرغم من أنَّ السياق الذي ذُكرت فيه يجمع بين أمرين أحدهما ضدّ للآخر، فكان سياق الحال يقتضي أن تُقابَل الكلمة بضدّها ، فما سبب هذا العدول عن الضدِ إلى المخالف ؟ ولماذا استبدل اللفظ الضدّي بلفظٍ خلافي ؟ فلا بد من وجود سرٍّ وراء هذا العدول في التقابل ، ووراء هذا الاستبدال والتغيير في اللفظ! فكلنا يعلم أنّ كلَّ لفظةٍ في القرآن الكريم جاءت في الموقع المناسب لها ، وأنّ اختيارها دون غيرها هو اختيارٌ مقصودٌ ، لتؤدي دلالتها المعينة والمعنى المراد منها في ذلك الموقع .

وسنحاول في هذا البحثِ الوقوف على بعضِ أسرار التقابل الخلافي ، وبيان مواطن جماله ودقائق معانيه ودلالاته ، وذلك باختيار بعضٍ من المتقابلات الخلافية التي وردت في النص القرآني الكريم ، معتمدين في كلِّ ذلك على ما جاء في كتب التفسير واللغة والبلاغة والإعجاز ، فضلاً عن بعض الإضافات والإيضاحات التي رأيت من المناسب ذكرها في مواضعها ، والله الهادي والموفق إلى سواء السبيل .

١ـ مفهوم التقابل الخلافي

١-١ التقابل الخلافي في اللغة

أولاً : التقابل في اللغة

ورد التقابلُ في المعاجم اللغوية بمعانٍ متعددةٍ ، متقاربة كلها في المعنى ، وهي على النحو الآتي :

المقابلة : المواجهة ((تقول : لقيته قِبَلاً أي مواجهة)) [٢]،والمقابلة : المعارضة ((ومقابلة الكتاب بالكتاب تعني : معارضَته [٣]، والمقابلة : المحاذاة ، واستقبل الشيء وقابله : حاذاه بوجهه [٤]، والمقابلة : الموازاة ((فَوازَيْنا العَدُوَّ وصافَفْناهُم الموازاة المقابلة والمُواجَهةُ)) [٥]، والتقابل : التعادل والتوازن ((ووازنه عادله وقابله)) [٦]، والمقابلة : الملاقاة ((ويقال : أَصابني هذا الأَمر من قِبَله أَي من تِلْقائه ...على معنى من عنده)) [٧]، والتقابل ضد التدابر ، فالمقبلُ ما استقبلته ، والمدبرُ ما استدبرته وودعته[٨]، ويأتي التقابل في عرفِ الناس بمعنيين :أحدهما ، إقبال بعضهم على بعضٍ بالوجه ، والثاني، يكون من باب المجاز وهو العناية والاهتمام [٩]، ومما سبق يتّضح لنا أنّ التقابل في اللغة يأتي ـ كما ذكرنا ـ بمعانٍ متعددة متقاربة كلها ، فالتواجه ، والتعارض ، والتحاذي ، والتوازي ، والتعادل ، والتوازن والتلاقي ، وكونه نقيض التدابر ،كل هذه المعاني يجمعها إطارٌ واحدٌ هو التواجه أو المواجهة ؛ لأنَّ كل هذه المعاني ـ في الحقيقة ـ متحققةٌ من أسلوب التقابل.

ثانياً : الخلاف في اللغة

أمّا معنى الخلاف في اللغة فإنَّه يدور حول ثلاث معانٍ رئيسة ، أوّلُها :إقامة الشيء مقام غيره ، وثانيها :الخلفُ عكس الأمام، وثالثُها بمعنى التغيير[١٠] ، وإذا دققنا النظر في هذه المعاني الثلاثة وغيرها مما جاء في كتب اللغة وجدناها تدخل في إطار معنًى عام يجمعها كلها هو التغيير ، فمجيء الشيء بعد الشيء ليقوم مقامه معناه تغيير الأول ، ويسمى ذلك في العرف استخلافاً تقول: اسْتَخْلَفتُ فلاناً من فلان إذا جعلته مكانه ، وخَلَفَ فلانٌ فلاناً وذلك إذا صار مكانه أو بديله[١١] ، والمبادلة في الحقيقة تغيير ، والخَلْفُ ضدّ قُدّام هما كذلك متغايران ، وقد جاء الخلاف بمعنى التغيير في الحديثِ النبوي الشريف في أكثر من موضع من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام :((لَتُسَوُّنَّ صُفوفَكم أَو لَيُخالِفَنَّ اللّهُ بين وُجُوهِكم)) [١٢] قال ابن منظور (ت٧١١ هـ) :((يريد أَنَّ كلاًّ منهم يَصْرِفُ وجهَه عن الآخر ... وقيل أَراد بها تحويلَها إلى الأَدْبارِ وقيل تغيير صورها إلى صورٍ أُخرى)) [١٣]، والصرف والتحويل والتغيير بمعنى واحد ، ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم : ((لَخُلُوف فم الصائم أَطيبُ عندَ اللّه يوم القيامة من ريح المِسْكِ ...)) [١٤]، وخُلوف الفم يعني : تغيّر طعمه وريحه بسبب خلوّ المعدة من الطعام[١٥].

١-٢ التقابل الخلافي في الاصطلاح

قسّم اللغويون المقابلة إلى أقسام عدّة ، وبمسمّيات مختلفة إمّا بحسب اللفظ ، أو بحسب المعنى ، أو بحسب عدد الألفاظ المتقابلة [١٦]،

وأدخلوا ضمن هذه الأقسام أقسام أخر من بينها : التقابل الخلافي [١٧]، فقد وردت تسمية التقابل الخلافي عند الزركشي (ت ٥٣٨ هـ) عند حديثه عن أنواع المقابلة إذ قال: ((وهي ثلاثة : نظيري ونقيضي وخلافي)) [١٨] ولم يعرّف أيّاً من هذه الأنواع الثلاثة واكتفى بالتمثيل لها ، إلاّ أنَّه وقف عند التقابل الخلافي وحده ووصفه بقوله: ((والخلافي أتمها في التشكيك وألزمها بالتأويل)) [١٩]، وربما يشير ذلك إلى أهميّة هذا النوع من أنواع المتقابلات ، وقد سمّاه العلويّ (ت ٧٤٥ هـ) أيضاً بهذا الاسم في طرازه في معرض حديثه عن أضرب المقابلة وجعله على قسمين : القسم الأول أن يكون فيهما أحد اللفظين مخالفاً للآخر ، إلاَّ أنَّ بينهما مناسبة وذلك نحو قوله تعالى:﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾[٢٠] فالمصيبة تخالفُ الحسنة من غير مضادّة ، وإنَّما ضدّ الحسنة السيّئة ،إلاَّ أنَّ المصيبة تقارب السيّئة في المعنى وبينهما علاقة ؛ وذلك أنَّ كل مصيبة سيّئة ، وليس كل سيئة مصيبة [٢١] ، فيوجد تقارب بينهما في المعنى وهذا التقارب هو جهة العموم والخصوص ، وأمّا القسم الثاني منهما فإنَّه ليس ثمّة مقاربة بين اللفظين المتخالفين ولا توجد مناسبة تجمعهما في المعنى ومن أمثلة هذا القسم ما قاله أبو الطيب المتنبي :

لمن تطلب الدّنيا إذا لم تُرِد بها سرور مُحبٍّ أو إساءة مُجرم [٢٢]

فكان الصواب أن يُقابلَ لفظ محبٍّ بلفظ مبغضٍ لا بمجرمٍ ؛ لأنَّ بين المحبِّ والمجرم بُعداً كبيراً ، فليس بالضرورة أن يكون كلّ من أجرم بحقّك مبغضاً لك ، إذ قد يكون الدافع للجرم شيئاً آخر غير البغض كالسرقة ونحوها [٢٣].

فيمكن أن نستشفَّ من خلالِ كلام العلويّ (ت ٧٤٥ هـ)عن هذا الضرب من أضرب المقابلة تعريفاً للتقابل الخلافي وهو : أن يُقابل لفظٌ بلفظٍ

آخر يكون مخالفاً له في المعنى من غير أن تكون بينها مضادة ، ولكن قد يكون هنالك تقاربٌ في المعنى أو مناسبةٌ بين اللفظين الخلافيين كما أشار العلويّ ، أي: بين اللفظ البديل واللفظ المبدل منه ، وقد يكون هذا التقارب من جهة العموم والخصوص كما مرّ في مقابلة الحسنة بالمصيبة في الآية الكريمة ، فالمصيبة أخصّ من السيّئة بالمعنى والسيّئة أعمّ ، فإنّ من السيّئات ما يكون مصيبة ومنها ما لا يرتقي إلى درجة المصيبة إلاَّ أنَّه يبقى بينهما تقاربٌ في المعنى ، وقد يكون التقارب بين اللفظين البديل والمبدل منه من جهة السبب والمسبب في نحو مقابلة الشّدة بالرّحمة في قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ﴾ [٢٤] ، وإنما ضد الشّدة اللّين ، لكنّ الرّحمة من مسبّبات اللّين[٢٥]، وقد لا يكون هناك بالأساس تقاربٌ أو مناسبةٌ كما في قول المتنبي السابق ، أو كقول الشاعر:

فكم من كريمٍ قد مَنَاهُ إلـهُه بمذمومةِ الأخلاق واسعةِ الْـهَن [٢٦]

فلا وجود لتقاربٍ أو مناسبةٍ بين قوله : بمذمومةِ الأخلاق وبين قوله : واسعة الْـهَن ، وكان الأصوب للمقابلة أن يُقال بضيّقة الأخلاقِ واسعة الْـهَن ؛ لأنَّ التوسّع ضدّه الضيق لا الذم [٢٧]، هذا وبدا لنا أنّ الألفاظ التي استعملها القرآن الكريم في التقابل الخلافي كانت من الوجه الأول ، أي: أنّ هناك مناسبةً أو تقارباً من جهة المعنى بين اللفظ (البديل) المستعمل في التقابل وبين اللفظ المبدل منه غير المستعمل ، فالقرآن الكريم عندما يختار لفظاً معيّناً ليحمله على معنى لفظٍ آخر، يتخيّر من الألفاظ ما يكون بينها مقاربةٌ و مواشجةٌ ؛ لكي تؤدّي المعنى المطلوب والدلالة المراد فهمها من التأليف ؛ وهذا من إعجاز لغة القرآن الكريم ؛ ((لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات

الأحوال منطوقة ومفهومة ، وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها)) [٢٨]، فالقرآن بأسلوبه الحكيم يستثمرُ القدرة اللغوية في ألفاظ اللغة العربية ويمدّها من إعجازه ليخرجها بأحسن الأشكال وأروع الاستعمال .

١-٣ أسرار التقابل الخلافي في القرآن الكريم

القرآن الكريم بحرٌ مليءٌ بالأسرار لا ينضب ، وفيضٌ غزيرٌ من العطاء لا ينفد ، ففي ألفاظه أسرارٌ ، وفي تكراره أسرارٌ ، وفي ترتيب نظمه وتراكيبه أسرار ، وفي كلّ أساليبه أسرارٌ ومعانٍ ، فمن يبحث في ألفاظه وتراكيبه وأساليبه يتجلّى له بعضٌ من أسرارها ودقائقها ، ونحن في هذا المبحث نتناولُ جانباً من أسرار التقابل الخلافي في القرآن الكريم ، وذلك من خلال نماذج مختارة من بعض المتقابلات الخلافية التي وردت في النص الكريم ، ونلتمسُ شيئاً من أسراره ، ونستشف بعضاً من معانيه ودلالاته .

النموذج الأول : (الحسنة ـ المصيبة)

ورد التقابل بين لفظتي الحسنة والمصيبة في قوله تعالى:﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ [٢٩]، والخطابُ في النص الكريم موجّهٌ للنبيّ صلى الله عليه وسلم، إذ أخبره الله عزّ وجلّ بشدة عداوة المنافقين له ، وذلك أنَّه إذا أصابته حسنةٌ من نصر وغنيمة ساءهم ذلك يعني : المنافقين ، وإن تصبه مصيبةٌ من قتلٍ ونحوه فرحوا بها [٣٠]، وكما هو معلوم أنَّ الحسنة تقابلها السيّئة ، جاء عن الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) قوله : ((والمحاسِن من الأعمال ضد

المساوئ))[٣١]، وفي مختار الصحاح يقول الرازي (ت ٥٥٦هـ) : ((والحَسَنةُ ضدّ السيّئة والمحَاسِنُ ضد المساوئ والحُسْنَى ضدّ السّوءى)) [٣٢]، ونتفق مع الراغب (ت٤٢١ هـ) الذي يرى أنَّ الحسنة هي كلّ ما يعبر بها عن نعمة تنال الإنسان ، سواء كانت في نفسه أو جسمه أو أحواله المعيشيّة ، فضلاً عمّا يسّره ، أمّا السيّئة فضدها [٣٣]، ويؤيد ذلك أنَّه قد جاء في مواضع كثيرة في القرآن الكريم مقابلة الحسنة بالسيّئة وكما هو مبيّن في الآيات الكريمة الآتية في قوله تعالى :﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ ﴾[٣٤]، ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[٣٥]، ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾[٣٦] ، ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ﴾ [٣٧] ،﴿ فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ ﴾[٣٨]، ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ﴾[٣٩] ، وغيرها من المواضع ، فما السرُّ في هذا العدول عن مقابلتها بالسيّئة ومقابلتها بالمصيبة في الآية الخمسين من سورة التوبة ، وما السرُّ في اختيار اللفظ المخالف بدلاً من اللفظ الضدّي في هذا التقابل ؟ قبل أن نجيب على هذا السؤال ينبغي علينا أولاً أن نبيّن نوع العلاقة بين لفظتي السيّئة والمصيبة ، ومن ثمَّ نبيّن سرّ التقابل الخلافي والعدول عن السيّئة إلى المصيبة أولاً : السيّئة ، وهي لفظٌ عامٌ لكل ما يَسُوءُ المرء من داء وآفات [٤٠]، أما المصيبة فقد جاء في لسان العرب: ((وأَصابه بكذا فَجَعَه به وأَصابهم الدهرُ بنفوسهم وأَموالهم جاحَهُم فيها فَفَجَعَهم)) [٤١]، والإصابة هي الشّدة النّازلة بالمرء [٤٢]، ويعبّر عنها بالنّوازل والشّدائد العظام كالموت ونحوه ، وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ

أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾[٤٣] فسمّى الموتَ مصيبةً، وقولـه تعـالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [٤٤]، فعبَّر عن تلك النَّوازل والشَّدائد بلفظ المصيبة ، فالمصيبةُ أقوى من السيّئة وهي أخصُّ منها ، والعلاقة بينهما علاقة عموم وخصوص ، جاء في الطراز : ((فالمصيبة مخالفة للحسنة من غير مضادة ، إلاَّ أنَّ المصيبة لا تقارب الحسنة وإنَّما تقارب السيّئة ؛ لأنّ كل مصيبة سيّئة ، وليس كل سيّئة مصيبة ، فالتّقارب بينهما من جهة العموم والخصوص)) [٤٥]، ومن هنا يتبيّن أنّ المصيبة أقوى وأشدُّ من السيّئة ، وأنّ سرَّ اختيارها بدلاً من لفظة السيّئة لتدلّ على شدّة عداوة المنافقين للنبيّ صلى الله عليه وسلم وحقدهم عليه ، فإنَّ ما يفرحهم ويسرّهم هو ما يصيب النبي عليه الصلاة والسلام من نوازل وشدائد عظام ، وكلما كانت المصيبة أكبر كان فرحهم بها أكثر ؛ لأنّه حقدٌ لا يذهب عند نزول الشدائد ، بل يزيدهم ذلك فرحاً وسروراً [٤٦].

وثمة سرٌّ آخر دقيقٌ في هذا التقابل أشار إليه الشيخُ الطنطاوي في التفسير الوسيط نقلاً عن أهل العلم ، وهو أنَّ ((الخطاب هنا للنبى – صلى الله عليه وسلم – وهي في حقِّه مصيبةٌ يثاب عليها ، ولا سيئة يُعاتب عليها)) [٤٧]، وقد جاء في الحديث الشريف ((ما من شيءٍ يصيب المؤمن حتى الشوكة تصيبه إلا كتب الله له بها حسنة أو حطَّت عنه بها خطيئة)) [٤٨]، لاسيّما أنّ لفظة السيّئة إذا قوبلت بالحسنة في الاصطلاح الشرعي يراد بها السيّئات من الإعمال ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيّئات﴾ [٤٩] ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم منزَّهٌ ومسلَّمٌ من كلِّ ذلك ؛ لذا اختير في هذا الموضع لفظة المصيبة بدلاً من السيّئة.

النموذج الثاني : (الدّنيا ـ الآخرة)

وقع التقابل الخلافي بين لفظتي (الدنيا والآخرة) في مواضع كثيرة في القرآن الكريم منها الآيات الكريمة الآتية من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيم﴾ (٥٠)، ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٥١)، ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ۞ وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾(٥٢)،وغيرها من الآيات ، والدّنيا يقابلها بالضدّ العليا ، والآخرة يقابلها الأولى ، فما السرّ في التعبير بلفظة الدّنيا بدلاً من لفظة الأولى ؟، وما السرّ في التعبير بلفظة الآخرة بدلاً من لفظة العليا ؟ .

إنّ القرآن الكريم كثيراً ما يذكر الدّنيا في سياق التنفير منها والتقليل من شأنها ، وأنها ليست دار بقاء واستقرار ، وإنما هي دار بلاء وفناء ، وكل ما فيها وعليها زائل لا محال ، فمن اغتر بنعيمها القليل الزائل واطمأن إليها ورضي بها بديلاً من الآخرة فقد خسر خسراناً كبيراً ، وأما من اغتنمها بالباقيات الصالحات واتخذها طريقاً إلى دار البقاء والنعيم الأبدي دار العلوّ والخلود السرمدي فهو الذي أفلح باتّباع منهج الله تعالى (٥٣)؛ لذا جاء التحذير كثيراً في القرآن الكريم من الاغترار بها والسعي في طلبها ، والانخداع بما فيها من لذة زائلة ونعيم فانٍ ، قال تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (٥٤) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا

مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [٥٥] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۞ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [٥٦] ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ﴾ [٥٧] وغيرها من الآيات الكثيرة التي جاءت تظهر حقيقة الدّنيا وزينتها .

ومن هنا نجد أنَّ التعبير بلفظة (الدّنيا) بدلاً من الأولى في مقابل الآخرة فيه بيان أنَّها حياة دون الحياة الآخرة قدْراً وقيمةً ، وفيه تنفير عظيم من الميل إليها ، والاغترار بزينتها الخدّاعة ، وفيه تنبيه عظيم للفرار من أسرها إلى سعة الحياة الآخرة ، ونلحظ في وصف الله عزَّ وجلَّ في مواطن كثيرة من كتابه الكريم لهذه الحياة الأولى بالدّنيا إشارة بليغة في أنّها الحياة الأدنى وليس دونها حياة ، كما أنَّ في وصف الحياة الثانية بالآخرة بدلاً من الأولى إشارة أخرى وتنبيه يستدعي الحرص إلى أنَّه ليس من بعدها حياة أخرى، فعلى العاقل أن لا يفوّت الفرصة من يده ويستبدل الأدنى الزائل الفاني بالأعلى الدائم الباقي[٥٨]، فالسرّ في اختيار لفظة (الدّنيا) في هذا التقابل الخلافي قصد منه إيصال معنى معين للسامع هو دنوّ منزلة الحياة الأولى قياساً بالحياة الآخرة التي ضمّنها في هذا التقابل معنى العلوّ ، ويرى بعض أهل العلم أنَّ هذه الحياة إنما وصفت بالدّنيا لسببين : الأول ، تقدّمها على الآخرة ، فهي أدنى منها لقربها وهذا ظاهرٌ ومعلومٌ للجميع ، والثاني : هو دنوّ مرتبتها ومنزلتها في مقابل الدار الآخرة ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: « لموضع سوطٍ في الجنَّة خيرٌ من الدّنيا وما فيها»[٥٩] ؛ فإذا كان موضع سوطٍ من الحياة في الآخرة ـ وهو مقدار متر تقريباً ـ هو خيرٌ من الدّنيا وما فيها فقد ظهر دنوّ منزلة الدّنيا ومرتبتها في مقابل الآخرة [٦٠]، فإذا نظرنا إلى هذا التقابل الخلافي نجده يهدف إلى إيقاظ

القلوب وتحريك العقول من خلال وضعها أمام مقارنة بين هاتين الحياتين الدّنيا والآخرة ، إنَّ هذا التخالف التركيبي من شأنه أن يحيلنا على أثره السياقي في تحقيق التخالف بين الحياتين، فإنَّ فيه توجيهاً وتعليماً للمتلقي ؛ وذلك إذا ما خُيّر بين شيئين متساويين قدراً وقيمةً إلاَّ أنَّ أحدهما زائلٌ والآخر باقٍ لا يزول فإنَّ من الحكمة والصواب أن يختار الباقي الذي لا يزول ولا ينقطع [٦١].

النموذج الثالث : (الشّدة ـ الرّحمة)

جاء التقابل الخلافي بين الشّدة والرّحمة في قوله تعالى:﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ﴾ [٦٢]، والشّدة ضدّها اللّين وليست الرّحمة ، والرّحمة ضدّها العذاب وليست الشّدة ، والسّر في اختيار اللفظ المخالف لكلا اللفظين هو أنَّ الرّحمة من مسبّبات اللّين وأنّ العلاقة بينهما هي علاقة السبب والمسبب ؛ لذا حسُن مقابلتها بالشّدة[٦٣]، فالرحمة ملازمة للّين أينما وجدت الرّحمة وجد اللّين[٦٤] ؛ لذا يقول الله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[٦٥]، أما السيوطي (ت٩١١ هـ) فيرى في ذكر الرّحمة في مقابل الشّدة حتى لا يتوهم السامع أنَّهم بدون رحمة إذ ((لو اقتصر على أشداء لتوهم أنَّه لغلظهم)) [٦٦]، ونلحظ كذلك من التعبير بالرّحمة بدلاً من اللّين إضفاء صفة الرّحمة على المؤمنين وهي مشتقة من اسم الله الرحيم جلّ جلاله . ولو نظرنا إلى الجانب الآخر من هذا التقابل وهو مقابلة الرّحمة بالشّدة بدلاً من العذاب الذي يأتي بالضّد منها في اغلب المواضع مثل قوله تعالى:﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ [٦٧]، سنجد سراً لطيفاً فيه ، وذلك أنَّ الشدّة تعني :((الصَّلابةُ وهي نَقِيضُ اللِّينِ ... ورجل شديدٌ قويٌّ والجمع أَشِدّاء)) [٦٨] ، وقد جاءت في الآية الكريمة

في سياق المدح للمؤمنين فهم كما أنَّهم رحماءُ مع المؤمنين أشدّاء في الوقت نفسه على الكافرين يعني أنَّ رحمتهم وشدّتهم لله تعالى ليست لأنفسهم [٦٩]، أمَّا العذاب فإنَّه عقوبة ، جاء في لسان العرب : ((والعَذَابُ النَّكَالُ والعُقُوبة يقال عَذَّبْتُه تَعْذِيبا)) [٧٠]، والعقوبة هي من أمر الله تعالى وحده قال تعالى : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾[٧١] ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾[٧٢]،﴿ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[٧٣]، ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [٧٤]، ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٧٥]،﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [٧٦]، والآيات بهذا الخصوص كثيرة في القرآن الكريم تثبت أنَّ العذاب بيد الله تعالى وحده أو من يخوّله الله تعالى من عباده كما خوّل عبده ذا القرنين في قوله :﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾[٧٧]، وقد يجعله على يد من يشاء من عباده سبحانه كما قال : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾[٧٨] ، فاختيار لفظة الشدّة بدل العذاب يأتي من قبيل الإعجاز القرآني في اختيار اللفظة المناسبة في السياق المناسب ، فالشدّة هي اللفظة المناسبة هنا ؛ لأنها في سياق المدح كما سبق بيانه .

النموذج الرابع : (الشَّر ــ الرّشد)

ورد التقابل بين لفظتي (الشَّر و الرّشد) في موضع واحد في القرآن الكريم هو قوله تعالى :﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ

بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [٧٩]، فقابل فيه الشَّر بالرّشد بدلاً من مقابلته بالخير ، وقابل الرّشد بالشَّر بدلاً من مقابلته بالغيّ ؛ لأنَّ الشَّر ضدّه الخير وليس الرّشد ، والرّشد ضدّه الغيّ وليس الشَّر ، والسِّر في ذلك هو الإشعار أيضاً بالمعاني الأربعة ، جاء في البرهان:((والخير الذي يخرجه لفظ الشَّر ضمنا نظير الرّشد قطعاً والغىّ الذي يخرجه لفظ الرّشد ضمنا نظير الشَّر قطعاً فحصل من هذا الشكل أربعة الفاظ نطقان وضمنان فكان بهما رباعيان)) [٨٠]، فهذه المعاني الأربعة هي في الحقيقة تفسير للثنائيين المتخالفين (الشَّر و الرّشد) [٨١]، كما يشير سياق الآية الكريمة إلى أنَّ مقابلة الشّر بالرّشد وتضمين الشَّر معنى الغيّ وتضمين الرّشد معنى الخير فيها ، هو لبيان أنَّ من أُرِيدَ بهم الشّر ، هم الذين سلكوا سبيل الغيّ وهو سبيل الظلال والهلاك والخيبة ، ممن استكبروا على الحق ولم يؤمنوا بالقرآن الكريم ولم يتّبعوا سبيل من أُنزل إليه القرآن ، وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم [٨٢]، ويؤيد ذلك ما جاء في سورة الأعراف من قوله تعالى : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [٨٣] ، كما دلّ التقابل أيضاً على أنَّ من أراد بهم ربّهم خيراً في هذه الحياة هم الذين سلكوا سبيل الرّشد ، سبيل الهداية والاستقامة والسداد ممن أسلم لله تعالى ، وآمن بالقرآن الكريم واتبع النبي صلى الله عليه وسلم ، فنجوا من الهلاك وصاروا إلى نعيمٍ دائمٍ [٨٤]، يدلنا على هذا المعنى الأخير قوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [٨٥] ، إذ اقترن ذكر الرّشد فيها بذكر الإسلام في سياق الشرط وفي السورة نفسها للتنبيه على أنَّ من أسلم لله تعالى فقد سلك سبيل الرّشد وهو سبيل الهداية والنجاة [٨٦].

النموذج الخامس : (الضرّ ــ الرّشد)

لا نزال في سياق السورة السابقة نفسها إذ ورد فيها التقابل الخلافي هذه المرة بين لفظتي (الضرّ و الرّشد) وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا ﴾ (٨٧)، والضرُّ ضدّه النفع ، وليس الرّشد ، والرّشدُ مخالفٌ للضرِّ من غير مضادة ، وقد ورد الضرُّ في مقابل النفع في القرآن الكريم في مواضع عديدة منها ما يأتي : قوله تعالى :﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٨٨)، ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلا مَا شَاء اللَّهُ﴾ (٨٩)، ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾ (٩٠)، ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ (٩١)، ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ (٩٢)، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ (٩٣)، وغيرها من الآيات . وكذلك لفظ (الرّشد) فإنّ ضدّه (الغيُّ) وليس (الضرّ) ، وفي لسان العرب : ((الغَيُّ الضَّلالُ والخَيْبَة غَوَى بالفَتح غَيّاً وغَوِيَ غوايَةً ... وكذلك غَوِيٌّ ونظيره رَشَدَ فهو راشِد)) (٩٤)، أما الضرُّ فهو مخالفُه ، وقد جاء الرّشدُ مقابلاً للغيِّ في أكثر من موضعٍ واحدٍ في القرآن الكريم نحو قوله تعالى: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيّ ﴾(٩٥)، ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا ﴾ (٩٦)، فكان من المتوقّع أن يُقابَل الضرُّ بالنفع ، أو يُقابَل الرّشدُ بالغيِّ كما مرَّ في الآيات السابقة ، لكن الذي حصل هو أنَّ كلاً من اللفظين قُوبلا بلفظين خلافيين لهما ، والسرُّ هو أنّ الضرَّ المذكور في المقابلة هو نتيجةُ الغيِّ الذي لم يُذكر فيها ، والرّشد المذكور في المقابلة هو نفسه سببٌ لحصول النفع الذي لم يُذكر فيها ، فعبّر في الأول بالنتيجة (الضرّ)

عن سببها وهو (الغيُّ)، وعبّر في الثاني بالسبب (الرّشد) عن نتيجته وهو (النفعُ) إشعاراً بالمعنيين [٩٧] ، فيكون المعنى : لا أَمْلِكُ لكم ضَرَّاً ولا نَفْعاً ولا غَيَّاً ولا رَشَداً[٩٨]، وهذا المعنى أعمّ وأشمل وأعمق دلالة من غيره من المتقابلات الضّدية التي ذكر فيها الضرّ مقابل النفع ، أو ذكر الرّشد مقابل الغيّ، ففي هذا التقابل جمع المعاني الأربعة معاً ، فيصبح المعنى : لا أملك لكم الضرّ والنفع فحسب، وإنما لا أملك كذلك سببيهما ومسبّبيهما ، وأنَّ ذلك كلّه النفع والضرّ والرّشد والغواية بيد الله وحده ، ولا أحد من الخلق يملك القدرة عليه [٩٩]، ولاسيما أنَّ السورةَ تتحدث عن ما ينفع المؤمنين وما يضرّهم في دنياهم وأخراهم ، فتحدثت السورة عن سبيل الرّشد الذي هو سبيل الهداية والخير وحصول النفع ، فبيّنت أنَّ ذلك كلّه يحصل بالإسلام لله تعالى واتباع أوامره ، وتحدثت أيضاً عن سبيل الغواية الذي عبّر عنه مرة بالشَّر ومرة أخرى بالضرّ ، وهذا أسلوبٌ من الأساليب التي تفرَّد بها القرآنُ الكريم ، فهو يُورد اللفظ الواحد في أكثر من معنى ، فتكثر معاني الكلام مع الإيجاز ؛ وذلك كونه معجزةً دالةً على أنَّه كلامٌ منزَّل من لدن عليمٍ خبيرٍ.

النموذج السادس : (محسن ـ ظالم)

جاء التقابل بين كلمتي (محسن وظالم) في قوله تعالى : وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾[١٠٠]، والنص الكريم يحكي أفضال الله تعالى على سيدنا إبراهيم وولده إسحق عليهما السلام من بركة عليهما وعلى ذريتهما ثم أخبر الحق تبارك وتعالى أنّه يكون من ذريتهما من هو محسن ومن هو ظالم لنفسه[١٠١]، فقابل بين المحسن والظالم ، وهو تقابل خلافي ؛ لأنَّ المحسن ضده المسيء ، والظالم ضده العادل والسرّ في هذا

التقابل الخلافي هو إخراج هذه المعاني الأربعة العدل والإحسان ، في مقابل الظلم والإساءة ، ليدل التقابل على أنّ من أحسن فقد عدل في إحسانه ، ومن ظلم فقد أساء إلى نفسه ، وذكر التقابل في سياق ذراري الأنبياء للتنبيه على أنّه لا يلزم من صلاح الآباء صلاح الأبناء[١٠٢]، والمراد من الإحسان في الآية الإيمان ، والمراد بالظلم الكفر [١٠٣] ، فالمؤمن عادل لأنه عرف ما عليه من حق فأدى ما عليه من إيمان وطاعة وهو بذلك محسن لنفسه ، أما الكافر فقد أساء إلى نفسه حين أرداها وجرها إلى ظلام الكفر فهو بذلك ظالم لنفسه مبين.

إن نظرة أولى إلى النص الكريم من شأنها أن تحيلنا إلى هاتين الصورتين المختلفتين تماما في المعنى ، والتي كان أساسها هذا التقابل الخلافي الذي تناول قضية الإيمان والكفر التي عرضت في النص الكريم في صورة الإحسان والظلم ،فكل مفردة في هذا التخالف التركيبي هي معنى قائم بذاته وتحمل صفة الاستقلالية ، إذ استدعت كل هذه المعاني المعبرة والمشحونة في هاتين المفردتين (محسن وظالم) ، وهذه من خصوصية لغة القرآن الكريم .

وفي نهاية هذا البحث خلصنا إلى نتائج من أهمّها ما يأتي :

_ إنّ التقابل الخلافي أسلوب لغوي من أساليب اللغة العربية استثمره القرآن الكريم بإسلوبه الحكيم في الدعوة إلى الخير والصلاح ، ومدّه من إعجازه ليخرجه بأحسن الأشكال وأروع الاستعمال .

_ إنّ التقابل الخلافي وسيلة مهمة من وسائل الإثراء اللغوي كالاشتقاق والترادف وغيرهما ، إذ يرد فيه استعمال اللفظ الواحد في معنيين أو أكثر ، فتكثر معاني الكلام مع الإيجاز .

_ وجود علاقة أو تقارب معنوي في اللفظ الواحد المخالف بين المبدل والمبدل منه ، كاختيار لفظ المصيبة بدلاً من السيئة في مقابلة الحسنة ، ووجود علاقة وتقارب معنوي بين لفظ المصيبة (المبدل) ولفظ السيئة (المبدل منه) علاقة العموم والخصوص ، ويكون الغرض من الإبدال إيصال معنى معيّن .

_ إن استعمال القرآن الكريم للتقابل الخلافي يبعث برسائل موحية مؤثرة في صور ولوحات مشحونة بالمعاني تنمي الفكر وتستثير المشاعر والخيال ، وتحث على التأمل والتفكر وإجراء موازنة أو مقارنة بين صورتين مختلفتين .

الهوامش

[١] . سورة ص ، آية ٢٩ .

[٢] . العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) ، تحقيق : د . مهدي المخزومي ، د. إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال ج ٥ ص ١٦٦ .

[٣] ـ الصحاح تاج اللغة وصحاح اللغة ، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٢٩٣ هـ) ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ـ لبنان ، ط ٤ ، ١٩٨٧ م ، ج٧ ص ٩٨ .

[٤] . لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت ٧١١ هـ)، دار صادر ـ بيروت ، ط١ ، ج١١ ص ٥٣٤ .

[٥] . المصدر السابق ، ج ١٥ ص ٣٩١ .

[٦] . المصدر السابق ، ج ١٣ ص ٤٤٦ .

[٧] . المصدر السابق ، ج ١١ ص ٥٣٤ .

[٨] . المصدر السابق ، ج ١١ ص ٥٣٤ .

[٩] . ينظر : المفردات في غريب القرآن ، الحسين بن محمد المعروف بـ (الراغب الأصفهاني) (ت ٤٢١ هـ) تحقيق وإعداد مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز ، الناشر مكتبة نزار مصطفى الباز ، د. ط ، د . ت ، ١ج ص ٣٩٢ .

[١٠] . ينظر : معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق : محمد عبد السلام هارون ، دار الفكر ـ القاهرة ، ١٩٧٩م ، ج٢ ص ٢١٠ .

[١١] . ينظر : لسان العرب ، ج ٩ ص ٨٢ .

[١٢] ـ صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت٢٦١هـ) ، باب تسوية الصفوف وإقامتها ... ، رقم الحديث (٤٣٦) ، تحقيق وتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي . بيروت ١٩٥٤ م ،ج١ ص ٣٢٤ .

[١٣] . لسان العرب ، ج٩ ص ٨٢ .

[١٤] . صحيح مسلم ، باب فضل الصيام ، رقم الحديث (١١٥١) ،ج٢ ص ٨٠٦ .

[١٥] . ينظر : المصدر السابق ، ج٢ ص٨٠٦ .

[١٦] ـ ينظر : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد الموصلي ، (ت ٦٣٧ هـ) تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية . بيروت ، ١٩٩٥م ، ج٢ ص ٢٧٢ . ٢٧٤ ، والبرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٥٣٨ هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة عيسى البابي الحلبي وشركائه ، ط١ ، ١٩٥٧ م ، ج٣ ص ٤٥٨ ، وينظر : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٥ هـ) ، تحقيق : د . عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية . بيروت ، ط١، ٢٠٠٢ م ، ج٢ ص ٢٠١ .

[١٧] . ينظر : البرهان ، ج٣ ص ٤٥٨ ، والطراز ، ج٢ ص ٢٠١ .

[١٨] . البرهان ، ج٣ ص ٤٥٨ .

[١٩] . المصدر السابق ، ج٣ ص٤٥٨ .

[٢٠] . سورة التوبة ، آية ٥٠ .

[٢١] . ينظر : الطراز : ج٢ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

[٢٢] . ديوان المتنبي ، أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، د . ت ، ج٢ ، ص ٢٤٢

[٢٣] . ينظر : الطراز : ج٢ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

[٢٤] . سورة الفتح ، آية ٢٩ .

[٢٥] . ينظر : المثل السائر: ج٢ ص ٢٤٧ .

[٢٦] ـ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، عبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ) ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٤ ، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م ،ج١١ص٨٨ .

[٢٧] . ينظر : الطراز : ج٢ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

[٢٨] . مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ، ضبط وشرح وتقديم محمد الإسكندراني ، دار الكتاب العربي . بيروت / لبنان ، د. ط ، ٢٠٠٥ م ، ص ٥٠٦ .

[٢٩] . سورة التوبة ، آية ٥٠ .

[٣٠] . جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) ، تحقيق ، أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة . القاهرة ط١ ـ ١٤٢٠هـ ، ٢٠٠٠ م ، ج١٤ ص ٢٨٩ .

[٣١] . العين ، ج٣ ص١٤٣ .

[٣٢] . مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٥٥٦ هـ) ، ضبطه وصححه أحمد شمس الين ، دار الكتب العلمية بيروت . لبنان ، ط١ ، ١٩٩٤ م ، ص١٤٦ .

[٣٣] . ينظر: المفردات في غريب القرآن ، ج١ ص ١١٨ .

[٣٤] . سورة النساء ، أية ٧٨ .

[٣٥] . سورة النساء ، آية ٧٩ .

[٣٦] . سورة آل عمران ، آية ١٢٠ .

[٣٧] . سورة الأعراف ، آية ٩٥ .

[٣٨] . سورة الأعراف ، آية ١٣١ .

[٣٩] . سورة فصلت ، آية ٣٤ .

[٤٠] . ينظر : العين ، ج٧ ص٣٢٧ .

[٤١] . لسان العرب ، ج١ ص ٥٣٤ .

[٤٢] ـ المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفي ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار ، تحقيق مجمع اللغة العربية ، دار الدعوة . القاهرة ، ج ١ ص ٥٢٧ .

[٤٣] . سورة المائدة ، آية ١٠٦ .

[٤٤] . سورة البقرة ، الآيتان ١٥٥، ١٥٦ .

[٤٥] . الطراز ، ج٢ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

[٤٦] ـ ينظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ، (ت ٥٤١ هـ)تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية . لبنان ، ط١ ، ١٩٩٣ م ، ج١ص٤٩٩ .

[٤٧] ـ التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، محمد السّيد طنطاوي، مطبعة السعادة . القاهرة ، ط٢، ١٩٨٣م ، ج١٠ ص ٨٢ .

[٤٨] . صحيح مسلم ، ج٨ ص ١٦ .

[٤٩] . سورة هود ، آية ١١٤ .

[٥٠] . سورة البقرة ، آية ١١٤ .

[٥١] . سورة البقرة ، الآية ١٣٠ .

[٥٢]. سورة البقرة ، الآيتان ٢٠٠ ، ٢٠١ .

[٥٣]. ينظر : تفسير الشعراوي (خواطر الشعراوي حول القرآن الكريم) ، محمد متولي الشعر اوي (ت ١٩٩٨هـ) ، طبعت بمطابع دار أخبار اليوم ، القاهرة ، د. ط ، د . ت ، ج ص١٤٢١

[٥٤]. سورة الأنعام ، آية ٣٢ .

[٥٥]. سورة التوبة ، آية ٣٨ .

[٥٦]. سورة يونس ، الآيتان ٧ ، ٨ .

[٥٧]. سورة إبراهيم ، آية ٣ .

[٥٨]. ينظر : شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية ، إعداد محمود توفيق محمد سعد ، مكتبة وهبة . القاهرة . عابدين. ١٤ شارع الجمهورية ، ط١ ، ١٤٢٢هـ ، ص٥٠.

[٥٩]. سنن الدارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق فواز أحمد زميلي ، خالد السبع العلمي ، دار الكتب العربي. بيروت ، ط١. ١٤٠٧ هـ ، ج٢ ص ٤٢٨ .

[٦٠]. ينظر : التفسير الثمين. للعلامة العثيمين ، محمد بن صالح العثيمين ، اعتنى به : أشرف ابن كمال ، مكتبة الطبري. القاهرة ، ط١. ٢٠٠٩م ، ج٥ ص١٦ .

[٦١]. ينظر : شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية ، ص٥٠ .

[٦٢]. سورة الفتح ، آية ٢٩ .

[٦٣]. ينظر : المثل السائر : ج٢ ص ٢٤٧ .

[٦٤]. تفسير الشعراوي ، ج ٦ ص ٨٠٢ .

[٦٥]. سورة آل عمران ، آية ١٥٩ .

[٦٦]. الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ) تحقيق : سعيد المندوب ، دار الفكر. لبنان ، ط١ ، ١٩٩٩م ، ج٢ ص ٢٦٠ .

[٦٧]. سورة الحديد ، آية ١٣ .

[٦٨]. لسان العرب ، ج٣ ص ٢٣٢ .

[٦٩]. تفسير أبي السعود المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) ، محمد بن محمد العمادي أبو السعود (ت٩٨٢ هـ)، دار إحياء التراث العربي. بيروت ، ج ٨ ، ١١٤ .

[٧٠]. لسان العرب ،ج١ ص ٥٨٣ .

[٧١]. سورة آل عمران ، آية ١٢٨ .

[٧٢]. سورة الأنفال ، آية ٣٤ .

[٧٣]. سورة التوبة ، آية ٧٤ .

[٧٤]. سورة التوبة ، آية ٨٥ .

[٧٥]. سورة التوبة ، آية ١٠٦ .

[٧٦]. سورة المائدة ، آية ١١٥ .

[٧٧]. سورة الكهف ، آية ٨٦ .

[٧٨]. سورة التوبة ، أية ١٤ .

[٧٩]. سورة الجن ، آية ١٠ .

[٨٠]. البرهان ، ج٣ ص ٤٥٩ .

[٨١]. ينظر : المصدر نفسه ، ج٣ ص ٤٥٩ .

[٨٢]. ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ج١٣ ص١١٤ .

[٨٣]. سورة الأعراف ، آية ١٤٦ .

[٨٤]. ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ج١٣ ص١١٤ .

[٨٥]. سورة الجن ، آية ١٤ .

[٨٦]ـ ينظر: التحرير والتنوير ، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٢٨٤ هـ) ، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس. ١٩٩٧م ، ج٢٩ ص ٢٣٦.

[٨٧]. سورة الجن ، آية ٢١ .

[٨٨]. سورة المائدة ، آية ٧٦ .

[٨٩]. سورة يونس ، آية ٤٩ .

[٩٠]. سورة طه ، آية ٨٩ .

[٩١]. سورة الفتح ، آية ١١ .

[٩٢]. سورة البقرة ، آية ١٠٢ .

[٩٣]. سورة يونس ، آية ١٨ .

[٩٤]. لسان العرب ، ج١٥ ص ١٤٠ .

[٩٥]. سورة البقرة ، آية ٢٥٦ .

[٩٦]. سورة الأعراف ، آية ١٤٦ .

[٩٧]. أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي) أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت٧٩١ هـ) ، وهامشه حاشية العلامة أبي الفضل القرشي المعروف بالكازروني ، تحقيق : عبد القادر حسّونة ، دار الفكر. بيروت ، ط١، ١٩٩٦ م ،ج٥ ص ٤٠١ .

[٩٨] . روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ) ، دار إحياء التراث العربي . بيروت ، د . ت ، د . ط ، ج٢٩ ص ٩٣ .

[٩٩] . ينظر : المصدر السابق ، ج٢٩ ص ٩٤ .

[١٠٠] . سورة الصافات ، آية ١١٣ .

[١٠١] . ينظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ج٢١ ص ٩٢ .

[١٠٢] . ينظر : مفاتيح الغيب ، ج ١٦ص ١٣٨ .

[١٠٣] . جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ٢١ ص ٩٢ .

المصادر

١. الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ) تحقيق : سعيد المندوب ، دار الفكر . لبنان ، ط١ ، ١٩٩٩م .

٢. أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي) أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت٧٩١ هـ) ، وهامشه حاشية العلامة أبي الفضل القرشي المعروف بالكازروني ، تحقيق : عبد القادر حسّونة ، دار الفكر . بيروت ، ط١، ١٩٩٦ م .

٣. البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة عيسى البابي الحلبي وشركائه ، ط١ ، ١٩٥٧ م .

٤. التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٢٨٤ هـ)، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس د. ط ، ١٩٩٧م .

٥. تفسير أبي السعود المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) ، محمد بن محمد العمادي أبو السعود (ت٩٨٢ هـ) ، دار إحياء التراث العربي . بيروت ، د . ط ، د . ت .

٦. التفسير الثمين . للعلامة العثيمين ، محمد بن صالح العثيمين ، اعتنى به : أشرف ابن كمال ، مكتبة الطبري . القاهرة ، ط١. ٢٠٠٩م .

٧. تفسير الشعراوي (خواطر الشعراوي حول القرآن الكريم) ، محمد متولي الشعر اوي (ت ١٩٩٨هـ) ، طبعت بمطابع دار أخبار اليوم ، القاهرة ، د. ط ، د . ت .

٨. التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، محمد السّيد طنطاوي ، مطبعة السعادة . القاهرة ، ط٢، ١٩٨٣م .

٩. جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) ، تحقيق ، أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة . القاهرة ط١ ـ ١٤٢٠هـ ، ٢٠٠٠ م .

١٠. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، عبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ) ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون،مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط٤ ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

١١. ديوان المتنبي ، أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، د . ت .

١٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ) ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، د . ت ، د . ط .

١٣. سنن الدارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق فواز أحمد زميلي ، خالد السبع العلمي ، دار الكتب العربي ـ بيروت ، ط١ ـ ١٤٠٧ هـ .

١٤. شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية ، إعداد محمود توفيق محمد سعد ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ عابدين ـ ١٤ شارع الجمهورية ، ط ١ ، ١٤٢٢هـ .

١٥. الصحاح تاج اللغة وصحاح اللغة ، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٢٩٣ هـ) ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ـ لبنان ، ط ٤ ، ١٩٨٧ م .

١٦. صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) ، باب تسوية الصفوف وإقامتها ... ، رقم الحديث (٤٣٦) ، تحقيق وتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ١٩٥٤ م .

١٧. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٥ هـ) ، تحقيق : د . عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية ـ بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٢ م .

١٨. العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) ، تحقيق : د . مهدي المخزومي ، د. إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال .

١٩. لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت ٧١١ هـ) ، دار صادر ـ بيروت ، ط١ ، د . ت .

٢٠. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد الموصلي (ت ٦٣٧ هـ)، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ـ بيروت ، د. ط ، ١٩٩٥م .

٢١. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، (المعروف بتفسير ابن عطية) أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤١ هـ)، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ـ لبنان ، ط١ ، ١٩٩٣ م .

٢٢. مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٥٥٦ هـ) ، ضبطه وصححه أحمد شمس الين ، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٩٩٤ .

٢٣. معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ) ، تحقيق : محمد عبد السلام هارون ، دار الفكر ـ القاهرة ، د. ط ، ١٩٧٩م .

٢٤. المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفي ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار ، تحقيق مجمع اللغة العربية ، دار الدعوة ـ القاهرة ، د . ط ، د . ت .

٢٥. المفردات في غريب القرآن ، الحسين بن محمد المعروف بـ (الراغب الأصفهاني) (ت٤٢١ هـ) ، تحقيق وأعداد :مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز ، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز ، د٠ط ، د٠ت ٠

٢٦. مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن ابن محمد ابن خلدون ، ضبط وشرح وتقديم محمد الإسكندراني ، دار الكتاب العربي . بيروت / لبنان ، د. ط ، د. ت .